

المنهج التصنيفي عند ابن خلدون^(*)

د. الناجي محمد حامد^(**)

مدخل:

تعددت المناهج واختلفت في حقل العلوم الإنسانية، باختلاف الظواهر الاجتماعية والمواضيع المتطرق لها، والمراحل التي قطعها تطور الفكر البشري في مسيرته التاريخية منذ عصور بعيدة.

ورغم هذا التعدد والاختلاف احتفظ المنهج العلمي بمواصفات ظلت تنمو وتتكامل منذ أن بدأ الإنسان تسجيل ملاحظاته، ومراقبة الظواهر الطبيعية والبيولوجية، ومنذ أن تلمس ما يحكمها من قوانين، وما يكمن وراء ذلك من أسباب، ويدهي أن الممارسة العلمية في مراحلها البدائية اقتصرت على تسجيل المشاهدات، ثم ارتقت إلى محاولة تصنيفها في إطار يصل الظواهر بعضها ببعض، سواء بحكم التجاور المكاني أو بالتوقيت أو التتالي الزمني، وتلا ذلك المنهج التجريبي الذي شهد تطوراً على أيدي العلماء المسلمين والغرب في القرون الوسطى.

إلا أن هذا المنهج التجريبي لم يتكامل إلا بعد انحسار النهضة العلمية في المجتمع الإسلامي فوضعت الضوابط لتطبيق هذا المنهج^(*). على سبيل المثال نذكر ابن الهيثم. إذا كان الحال كذلك، فهل يمكن اعتبار صاحب المقدمة ذي منحى تجريبي صرف مثل غيره من المفكرين الذين أتوا بعده أمثال فرانسيس بيكون وأميل دور كايم؟ يرى البعض أن صاحب المقدمة، كان ذا منحى تجريبي، فالمقوم البيولوجي قد كان مستنداً اختياراً تعامل معه ابن خلدون تعامل المخبري مع لوحات التشريح، لأن حيرته القصوى تركزت على تحويل التخمين إلى مشاهدة عينية بغية إرساء قواعد التصور التجريبي. لذلك كان مفهوم التجربة أو المعاينة ذا مرتبة عالية في تفكير واضح علم

(*) بحث معد للمشاركة في المؤتمر الدولي حول ابن خلدون بالمعهد العالي للعلوم الإنسانية، تونس في أيام ١٢-١٣-١٤ إبريل ٢٠٠٦م.

(**) أستاذ مساعد بمعهد إسلام المعرفة (إمام)، جامعة الجزيرة.

(١) المسدي، عبد السلام، الأسس الاختبارية في نظرية المعرفة عند ابن خلدون، عن ندوة ابن خلدون والفكر العربي المعاصر، جامعة الدولة العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس ١٤ - ١٨ إبريل ١٩٨٠م، ص ١١٦.

العمران، ولا نكاد نتردد في أن ثمرة هذا المقوم البيولوجي قد تجسمت في وقوفه على قانون جوهرى له من العمق والشمول ما للكليات أحياناً، ألا وهو قانون الحاجة لحتمته اقتضاء الحاجة في الوجود وسداه إرضاء الحاجة بغية الوجود^(١).

ومن المعلوم أن الدراسات الاجتماعية تقتضي بطبيعتها المشاهدات والوصف وتتبع التطورات التي تحدث في الوحدات المجتمعية وليس من الصعب على متخصص في الفكر الخلدوني، أن يدرك أن هذا العلم الإنساني الإجمالي هو علم العمران البشري كما ورد بمعناه الأوسع في نصوص متعددة من المقدمة، وما دام يعتبر علماً تركيبياً يقتضي استقصاء الظواهر الإنسانية في كل شعب الحياة، فإنه يقتضي التحصيل على معارف موسوعة مصقولة بدقة المنهج العلمي التجريبي، وهو ما يقتضي بالضرورة تعدد المناهج العلمية عند ابن خلدون وفقاً لنمط الظاهرة الاجتماعية المراد تحليلها^(٢).

ويرى البعض الآخر، أن صاحب المقدمة ذا منهج تجريبي بالمعنى الحديث للكلمة كما وصفه البعض، وإنما قام المنهج التجريبي على أنقاض المفاهيم الأرسطية وكل القوالب القديمة التي حلت محلها مفاهيم جديدة.

لقد قرر ابن خلدون فساد المنهج الفلسفي الذي عرفه عند اليونان وأتباعهم من فلاسفة المسلمين، حيث ادعى هذا المنهج القدرة على الإحاطة بعالم ما وراء المشاهدات^(٣). صحيح أن ابن خلدون اعتمد الاستقراء ولكن لاستخلاص النتائج، بل لتأكيد النتائج التي يصفها. ذلك ما جعل ابن خلدون يبدو في الظاهر تجريبياً استقرائياً وهندسياً واستنباطاً، ولكن دون أن يفرض شروط أي منها^(٤).

إذا كان ابن خلدون قد فشل تطبيقاً في تطبيق المنهجية التاريخية على حد تعبير (الطالبي) إلى أي درجة نجح في استخدام المنهج التصنيفي عند دراسته للعمران البشري

(١) المسدي، ص ١٢١.

(٢) مزيان المجيد، التوازن بين الفكر الديني والفكر العلمي عند ابن خلدون، عن ندوة ابن خلدون والفكر العربي المعاصر، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - تونس ١٤ - ١٨ أيريل ١٩٨٠، ص ٢٣٦ - ٢٣٧.

(٣) مزيان، ص ٢٣٣.

(٤) الجابري، محمد عابد، ما تبقى من الخلدونية، مشروع قراءة نقدية لفكر ابن خلدون، عن ندوة ابن خلدون والفكر العربي المعاصر، ص ٢٩٠.

الذي أكد جل الباحثين على اكتشافه لعلم جديد، وإلى أي درجة يمكن الاعتماد عليه اليوم في دراسة المجتمعات البدوية والريفية في العالم العربي والإسلامي؟

ابن خلدون مكتشف علم العمران:

لقد خاض ابن خلدون تجربته السياسية التي ساهمت بقسط كبير في تشكيل تفكيره وتوجيه رؤاه وتحديد إشكالية علم العمران ومنهجه لدراسة مجتمع المغرب العربي في القرن الرابع عشر، حيث كانت العصبية القبلية تشكل بالفعل الإطار التنظيمي الوحيد والفعال الذي يتم بواسطته ومن خلاله التعبير عن التناقضات الاجتماعية والطموحات السياسية التي نعزوها نحن اليوم إلى العوامل الاقتصادية أي إلى أسبابها الحقيقية التي تحكمها وتوجهها.

وهنا ينزل السؤال ماذا اكتشف ابن خلدون في عزلته هل اكتشف علم التاريخ؟ لقد اكتشف علماً لم يكن معروفاً من قبل فأعطى هذا المولود الجديد اسم علم العمران وله وضع في المقدمة. وفي ذلك انعراج بين نقطة الانطلاق ونقطة البلوغ عند الانطلاق كانت شواغله بدون شك تتعلق بالمنهجية التاريخية. غير أن هذا البحث أدى إلى نتيجة لم تكن مفترضة مسبقاً أو متوقعة حتماً عند الانطلاق^(١).

لقد كان صاحب المقدمة وإعياً كاملاً الوعي بأنه بصدد اكتشاف علم جديد يختلف في آن واحد عن علمي الخطابة والسياسة المدنية اللذين (ربما يشبهانه) علم مستقل بنفسه تتوافر فيه الشروط المطلوبة في كل علم، ولعل أول هذه الشروط المنهج وقواعد ذلك المنهج. فإن هذا العلم ذو موضوع وهو العمران البشري والاجتماع الإنساني وذو مسائل، وهي بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته واحدة بعد أخرى وهذا شأن كل العلوم وضعياً كان أو عقلياً^(٢).

يقول صاحب المقدمة^(٣) (واعلم أن الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة، غريب النزعة غزير الفائدة أعثر عليه البحث وأدى إليه الغوص). ويضيف (ولي الفضل لأنني

(١) الطالب محمد، منهجية ابن خلدون، عن ندوة ابن خلدون للفكر العربي المعاصر، تونس ١٤ - ١٨ إبريل ١٩٨٠،

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ص ٢٨.

(٢) الجابري، مرجع سبق ذكره، ص ٢٨٥.

(٣) ابن خلدون، عبد الرحمن: مقامة ابن خلدون، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٨٨م، ص ٣٨.

نهجت له السبيل وأوضحت له الطريق ولعل ابن خلدون يقصد هنا منهجية هذا العلم الجديد الذي وضعه لكشف عما يلحق بالعرمان البشري والاجتماع الإنساني من العوارض والأحوال لذاته^(١)، وهو ما جعل البعض يؤكد على أن شواغل ابن خلدون كانت أولاً منهجية وأنه كان يرغب أيضاً من التاريخ فهم الواقع الذي مارسه... وإن كان هذا الواضح لا يخلو من التردد الذي لا ينفلت منه كل واضع لعلم جديد^(٢).

كان ابن خلدون تحدوه الرغبة الملحة للفهم والاعتبار، وذلك لأنه لم يكن إطلاقاً، مؤرخاً محترفاً قاصراً همه على الجمع والتسجيل^(٣)، حيث استفاد من منهجية الحديث المقامة على نقد السند عن طريق التعديل والتجريح مؤكداً في الوقت نفسه على عدم جدواها بمفردها، مضيفاً في الآن نفسه بأن نقد السند إن كان شرطاً ضرورياً فإنه غير كاف، لا أساسي بل يجب أن يأتي في مرحلة ثانية تكميلية مسبقاً من إمكانية وقوع الحدث المروي في حد ذاته وذلك بوسائل أخرى أنفع وأجدي، ويعبر ابن خلدون عن هذا بقوله: ولا يرجع إلى تعديل الرواة حتى يعلم أن ذلك الخبر نفسه ممكن أو ممتنع. وأما إذا كان مستحيلاً فلا فائدة للنظر في التعديل والتجريح. ولقد عد أهل النظر من المطاعين في الخبر استحالة مدلول اللفظ وتأويله بما يقبله العقل^(٤). كان هذا الاعتماد أساس أصحاب العلوم النقلية لها سواء كانوا أئمة النقل من المؤرخين والمفسرين أو من المحدثين وغيرهم، والحال أن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل... فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق، لاسيما إذا كان هذا النقل غثاً وسميناً والذي جرى كامل المؤرخين إلى التماهي في الاعتماد على الروايات، أي منهجية الوصف دون مقياس معياري خاص بعلومهم^(٥).

وهنا يؤكد الطالب على أن المنهجية الجديدة التي اكتشفها ابن خلدون لتعويض منهجية الحديث هي منهجية التاريخ وفي هذه المنهجية يحتل المرتبة الأولى قانون المطابقة

(١) الطالب محمد، مرجع سابق، ص ٢٩.

(٢) الطالب محمد، المرجع نفسه، ص ٣٠.

(٣) الطالب محمد، المرجع نفسه، ص ٣٢.

(٤) الطالب محمد، المرجع نفسه، ص ٣٤ - ٣٥.

(٥) الطالب محمد، المرجع نفسه، ص ٣٤ - ٣٥.

الذي سيتفجر عنه علم العمران ذلك العلم المستقل بنفسه والمستبطن للنشأة. إن قانون المطابقة الذي يحتل في منهجية ابن خلدون التاريخية مكان حجر الزاوية يستلزم أولاً النظر في الاجتماع البشري الذي هو العمران البشري والغرض من هذا النظر هو استخلاص ما يلحق هذا الاجتماع من الأحوال لذاته وبمقتضى طبعه والاطلاع على اختلاف الأمم والبقاع والأعصار في السير والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الأحوال والإحاطة بالحاضر من ذلك ومماثلاً ما بينه وبين الغائب من الوفاق، أو بون ما بينهما من الخلاف وتعليل المتفق منهما والمختلف^(١).

إن تطبيق قانون المطابقة جره إلى الكشف عن القوانين الاجتماعية وذلك كي يجعل منها بوجه برهاني لا مدخل للشك فيه معياراً صحيحاً يتحرى به المؤرخون طريق الصدق والصواب فيما ينقلونه. ولعل هذه النتيجة هي التي قادت صاحب المقدمة إلى الوقوف على المنهج التصنيفي عند دراسته لطبائع العمران البشري.

إن طموح ابن خلدون كان يهدف بادئ ذي بدء إلى أن يجعل من التاريخ قصة النشوء والارتقاء ووعاءً ضخماً يستوعب سائر ما يحدث في العمران حسب النواميس الطبيعية التي تسيره والتي كان يعتزم استكشافها وإجلاؤها. غير أنه من الجلي البدهي أنه لم يستطع تحقيق هذا الهدف الطموح الذي يتجاوز لا مقدرة شخص مهما كان عبقرياً بل مئات الأشخاص وإنما هو بناء مستمر لن يتحقق إلا على مر الأجيال وبمشاركة جماعية لم تزل متواصلة^(٢) لأن كتابته للتاريخ لم يكن همه في النهاية تسجيل الحوادث في حد ذاتها وإنما في فهم أسبابها ومسبباتها ودواعيها ونتائجها^(٣)، ولم يكن التاريخ بالنسبة إليه غاية في ذاته، وإنما وسيلة لفهم واكتشاف نواميس العمران وما يلحقه من العوارض. فغثر على جملة من القوانين تكون علماً جديداً ومستقلاً بنفسه دعاه صاحبه علم العمران. وعلى هذا الأساس كانت اهتمامات ابن خلدون منصبية على الأسباب والعلل والدواعي المؤدية إلى الظواهر الاجتماعية، ذواتاً كانت أو أفعالاً. ومن ذلك كانت المقدمة كما يقول (جورج لايبكا) تحدد منهجاً يطمح إلى تفسير العمران

(١) الطالباني محمد، نفس المرجع السابق، ص ٣٨.

(٢) الطالباني محمد، مرجع سابق، ص ٤٦.

(٣) الطالباني محمد، نفس المرجع، ص ٦٣ - ٦٤.

البشري بوصفه كلاً، ويرسم منهج العلم الجديد لنفسه حقلاً تطبيقياً يحدده ترتيب مفهوم^(١).

المنهج عند ابن خلدون:

لقد اكتشف ابن خلدون قانون الحاجة، الذي هو المحصلة الفيزيائية لقوتين ضاغطين، قوة الاقتضاء الخارجي وقوة النزوع الداخلي، الأولى تشجع الحاجة المتسلطة على الإنسان بوصفها تحدياً لوجوده. والثانية تشكل مسعى الإنسان إلى الاستجابة الطبيعية.

انطلاقاً من هذا المبدأ يمكن القول بأن ابن خلدون يعتبر رائداً للمنهج التصنيفي بالأساس. وذلك من خلال تصنيفه للعمران البشري بين عمران بدوي وعمران حضري. وهكذا يتسنى للباحث الناقد أن يستببط ملامح التصنيف classification على سلم الاقتضاء البيولوجي، إذ هو درجة أولى من درجات ناموس الحاجة، ألا وهي درجة الاقتضاء الغذائي. ودرجة ثانية هي ضرورة الاحتماء الطبيعي في الملبس والمسكن واتقاء الموجودات المتسلطة عليه بالافتراس، ودرجة ثالثة هي درجة التأزر البشري، لأن في تعاون الفرد مع الأفراد ما يعينهم على سد كل حاجاتهم وأكثر في عزلة الفرد عن الأفراد وقصوره عن سد أدنى ضروراته^(٢).

إن هذا المنهج الاختباري قد حتم إلى الاستناد إلى مبدئين منهجيين: أولهما القول بأن مسيرة الإجراءات ليست عشوائية ولا هي تعسفية مطلقة، وإنما تحملها ضوابط داخلية تمثل منطق انتظامها في الوجود. وثانيهما التسليم بأن العقل قادر على اشتقاق قوانين الظواهر من ذات الظواهر وذلك بانتزاعها عبر التجريد بعد المعاينة^(٣).

أما منهجه فيتخذ الوقائع منطلقاً وهذه الوقائع توصل إليها ابن خلدون من تجربته الزاخرة في الحياة ومن مشاهداته الكثيرة وملاحظاته المستمرة لأحوال العمران^(٤).

(١) إسماعيل زروقي، دراسات في الفلسفة السياسية، دار الفجر للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠١، ص ١٢١-١٢٢.

(٢) المسدي، مرجع سبق ذكره، ص ١٢٢.

(٣) المسدي، مرجع سبق ذكره، ص ١٢٣.

(٤) كريب أيان، النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هيرماس، ترجمة: سلسلة عالم المعرفة، عدد ٢٤٤، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٩، ص ٨.

حيث يقول (ويعد أن استوفيت علاجه وأنزلت مشكاته للمستبصرين وأذكيت سراجيه، وأوضحته بين العلوم طريق منهاجه وأوسعت في فضاء المعارف نطاقه) فكان المنهج الذي اعتمده ابن خلدون في دراساته هو المنهج التجريبي الذي يعود فيه إلى الأشياء الجسمانية ذاتها وإلى البحث في عللها وأسبابها^(١).

وفي اعتقادنا أن هذين المبدئين هما لب المنهج التصنيفي عند ابن خلدون، إذ لا يمكن اشتقاق قوانين للظواهر الاجتماعية من ذات الظواهر، إلا عبر تجريدها ووصفها وتصنيفها.

والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا المقام، كآلآتي هل يمكن القول أن صاحب المقدمة جاء بقواعد منهج لدراسة بدو المغرب العربي من خلال تصنيفه للعمران البشري بين مجتمع حضري ومجتمع بدوي، وما يلحقه من الأحوال لذاته وبمقتضى طبيعه؟ إن تصنيف ابن خلدون للعلوم يقوم على تقسيم العلوم إلى قسمين علوم (نقلية) وعلوم (عقلية) فالأولى تحيل إلى أصول ثابتة مسلم بها نصوص مقدسة، ولا مدخل للعقل فيها إلا فيما يتعلق برد الفروع إلى الأصول وهذه العلوم أربعة، علوم القرآن والحديث والفقه والكلام، أما الصنف الثاني من العلوم الفلسفية والحكمية فتشمل المنطق والرياضيات والحساب والهندسة والفلك والموسيقى والطبيعة وما بعد الطبيعة. لكن ابن خلدون لا يكتفي في الحقيقة باستعادة تصنيف للعلوم معهود بل هو قد حاول إدماج تصنيفه في تصور عام للعمران^(٢).

من خلال هذا التقسيم للعمران البشري حسب منطق وأسلوب العيش برز المنهج التصنيفي لابن خلدون، حيث صنف أجيال العرب والبربر في المغرب العربي، فيقول (إن اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف نحلهم من المعاش)^(٣).

إن هذا التقسيم أدى بمفكرنا إلى تتبع وتحليل الواقع الاجتماعي من خلال منهج تصنيفي وصفي في إطار جدلية مجتمعية تاريخية لا بد منها لاستمرارية دور المجتمع

(١) إسماعيل زروقي، مرجع سبق ذكره، ص ١٢٢.

(٢) أولملي علي، الخطاب التاريخي، دراسة لمنهجية ابن خلدون، دار التتوير للطباعة والنشر، لبنان، ١٩٨٥، ص ٥٨ - ٥٩.

(٣) المقدمة، ص ١٢٠.

والدولة التي تقوم فيه وفقاً لتسلسل الأجيال والعصبية حيث يقول (إن الدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص، وأن عمر الدولة يمتد إلى ثلاثة أجيال من البداوة إلى الحضارة ومن الشظف إلى الترف.

ولذلك ترى هذه الورقة منذ البداية بأن مقدمة ابن خلدون في تناولها لأنماط عيش مجتمعات المغرب العربي آنذاك اعتمدت على منهج تصنيفي مقارن وهذا ما سنلاحظه عند تصنيفه لل عمران بين بدو وحضر في مرحلة أولى ثم تصنيفه للبدو في مرحلة ثانية وفقاً لوسائل كسب العيش وأنماط الإنتاج القائم على مبدأ الحاجة.

يبرز منهج التصنيف الخلدوني بالدرجة الأولى عصبية بدو الصحراء والجبال على أنها وحدها القادرة على الفعالية حيث يعتبر بدو الصحراء بمثابة احتياطي من الرجال الأشداء المحاربين بطبيعتهم تربطهم أواصر وثيقة الصلة من العصبية. وينطلق ابن خلدون في منهجه بين نمطين من أنماط العيش والإنتاج نمط (حاجي وضروري) ونمط (ترفي كمال^(١)). كذلك يظهر التصنيف من خلال تصنيفه للتفاضل القبلي إلى ثلاثة أنواع من التوازن^(٢):

- ١- توازن قائم على تكافؤ قوة عصبيتين.
 - ٢- توازن تضمنه هيمنة عصبية على العصبية الأخرى وتتجبع بعد ذلك في انتزاع الأمر من دولة بلغت مرحلة الهرم.
 - ٣- توازن قائم بين دولة لا تزال قوية ونجاح عصبية في غلب جميع العصبية الأخرى حينئذ يقوم توازن بين هذه العصبية وبين الدولة.
- حيث يقول (وإذا كان ذلك فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الإخبار وبالإمكان والاستحالة أن ننظر في الاجتماع البشري الذي هو العمران ونميز ما يلحقه من الأحوال لذاته وبمقتضى طبعه وما يكون عارضاً لا يعتد به وما لا يمكن أن يعرض له وإذا فعلنا ذلك كان لنا قانوناً في تمييز الحق من الباطل في الإخبار والصدق من الكذب بوجه برهاني لا مدخل للشك فيه. وحينئذ ماذا سمعنا عن شيء من الأحوال الواقعة في

(١) أواميل علي: مرجع سابق، ص ١٤٣-١٥١.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ١٥٤.

العمران علمنا ما نحكم بقبوله مما نحكم بتزييفه. كان ذلك معياراً صحيحاً يتحرى به المؤرخون طريق الصدق والصواب فيما ينقلونه).

وهنا يمكن القول بأن نظريته في علم العمران البشري تقوم على تحديد العلاقة بين هذين النوعين من العمران بوصفهما الإطار الذي يتحرك فيه التاريخ^(١). ومما سبق فإن علم العمران كما حدده ابن خلدون هو العلم الذي يبحث في جميع أنماط التجمعات السكانية من بدوية وحضرية مبرزاً خصائصه العامة وتصنيفاته متبعاً في صيرورة الانتقال المنهج العلمي الذي يعتمد على الاستقراء التاريخي التطبيقي الذي صنف من خلاله الواقعات والظواهر الاجتماعية. وبهذا المنهج يكشف ابن خلدون علمه الجديد^(٢). حيث إن أجيال البدو والحضر طبيعية، وإن اختلاف الأجيال في أحوالهم، إنما هو باختلاف نحلته من المعاش، وإن البدو أقدم من الحضر وسابق عليه، وإن البادية أصل العمران والحوضر امتداد لها. يقول ابن خلدون: فقد تبين لك أن جيل العرب طبيعي (المقصود بالعرب أهل البداوة) وأن البدو أقدم من الحضر وسابق عليه، وأن البادية أصل العمران والأمصار مدد لها، البدو هم المقتصرون على الضروري في أحوالهم العاجزون عما فوقه، وأن الحضر المعتنون بحاجات الترف والكمال في أحوالهم وعوائدهم^(٣).

إن معاناة أهل الحضر للإحكام مفسدة للبأس فيهم ذاهبة بالمنفعة منهم وأن سكنى البدو لا يكون إلا للقبائل أهل العصبية، وأن العصبية إنما تكون من الالتحام بالنسب أو معناه، والملاحظ أن أغلب فصول المقدمة هي في آن واحد أسماء لظواهر وأحداث اجتماعية تشكل معطيات العلم الجديد والواقع الاجتماعي الذي عاشه ابن خلدون وما زالت امتداداته وإشكالياته النظرية والمنهجية قائمة وما فتئت تعيش بصورة من الصور داخل مجتمعاتنا الراهنة^(٤). إلا أن عصر ابن خلدون كان الاختلاف والتباين أوضح ما يكون بين حياة البادية وحياة المدينة وابن خلدون الذي أراد أن يكشف عن طبائع

(١) الجابري، مرجع سابق، ص ٢٩٦.

(٢) إسماعيل زروقي: مرجع سابق، ص ١٢٨.

(٣) المقدمة، ص ١٢٢.

(٤) الجابري، مرجع سابق، ص ٢٩٤.

العمران وثوابته ليجعل منها معياراً لتصحيح الأخبار وتمحيصها، قد ركز اهتمامه على هذه الظاهرة نفسها وهي ظاهرة انقسام العمران جملة إلى عمران بدوي وعمران حضري^(١)، كما أن تحليله الدقيق لطريقة عيش البدو الرحل أي من سماهم العرب ومن في معناهم إلى جانب تحليله الرائع للحضارة المفسدة للعمران هي ما يكشف لنا خبايا المنهج الذي استخدمه ابن خلدون إلى جانب المنهج التاريخي ويقوم هذا المنهج في اعتقادنا على مبدأ التناقض الذي عبر عنه صاحب المقدمة بخشونة البداوة وبين ما سماه رقة الحضارة^(٢).

خشونة البداوة ورقة الحضارة في لغة ابن خلدون نمطان من الحياة على طريفي نقيض، الأول خاص بالبدو عموماً والرحل منهم خصوصاً والثاني تختص به فئة اجتماعية غير دائمة ولا قارة هي الأرستقراطية الحاكمة^(٣) في الحضرة.

خشونة البداوة تعني أساساً الاقتصار على المعاش الطبيعي من الفلح والقيام بالأنعام.. على الضروري من الأقوات والملابس والمساكن وسائر الأحوال والعوائد. وبالتالي فإن خشونة البداوة أسلوب في الحياة خاص بأولئك الذين يقطنون في الغالب الأرض الحرة التي لا تثبت زرعاً ولا عشباً بالجملة.. مثل أهل الحجاز وجنوب اليمن ومثل المثلثين في صنهاجة الساكنين بصحراء المغرب وأطراف الرمال في ما بين البربر والسودان، ومثل العرب أيضاً الجائلين في القفار يتخذون البيوت من الشعر والوبر أو الشجر أو من الطين والحجارة غير منجدة والذين قد يأوون إلى الغيران والكهوف ويتناولون يسيراً من الأقوات بعلاج أو بغير علاج البتة وإلا مسته النار. كما أن اجتماعهم وتعاونهم وحاجتهم ومعاشهم وعمرانهم من القوت والمسكن والرفاه إنما هو بالمقدار الذي يحفظ الحياة^(٤).

أما رقة الحضارة، فتعني خاصة أحوال الرقة والدعة وعوائد الترف البالغة مبالغة في الثابت في علاج القوت واستحيادة المطابخ وانتقاء الملابس الفاخرة في أنواعها من الحرير والديباج وغير ذلك، ومعاناة البيوت والصروح وأحكام وضعها وتجيدها، إنه نمط من

(١) الجابري، نفس المرجع، ص ٢٩٦.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ٢٩٧.

(٣) الجابري، نفس المرجع، ص ٢٩٧.

(٤) المقدمة ص ٢٠٨.

الحياة خاص بأولئك الذين ألفوا جنوبهم على مصادر الراحة والدعة وانغمسوا في النعيم والترف ووكلوا أمرهم في المدافعة عن أحوالهم وأنفسهم إلى والدهم والحاكم الذي يسوسهم والحامية التي تولت حراستهم.. فلا تهيجهم هبة البيعة قد ألقوا السلاح وتوالت على ذلك منهم الأجيال وتزلوا منزلة النساء والوالدان الذين هم عيال على أبي مثواهم حتى صار ذلك خلقاً يتزل منزلة الطبيعة^(١).

إن هذا التباين بين هذين النمطين من أنماط الحياة هو الذي أدى بصاحب المقدمة إلى الاهتمام إلى المنهج التصنيفي، فمحاولة تصنيف هذين النمطين من أنماط العيش ووصف خصائص كل منهما ومن ثم المقارنة بينهما هي التي أدت بابن خلدون إلى أن يصنف البدو إلى ثلاثة أصناف وهو تصنيف اعتمد على نفس المبدأ الذي اعتمده عند تصنيفه للبدو والحضر ألا وهو أسلوب العيش أو نمط الإنتاج القائم على قانون الحاجة.

تطبيقات المنهج التصنيفي عند ابن خلدون:

من خلال تصنيف البدو:

يقول: اعلم أن اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف نحلته من المعاش، فإن اجتماعهم إنما هو للتعاون على تحصيله، والابتداء بما هو ضروري منه وبسيط قبل الحاجي والكمالي. فمنهم من يستعمل الفلح من الفراسة والزراعة، ومنهم من ينتحل القيام على الحيوان من الغنم والبقر والمعز والنحل والدود لنتاجها واستخراج فضلاتها وهؤلاء القائمون على الفلح والحيوان تدعوهم الضرورة^(٢) ورغم اختلاف أنماط العيش بين هاته الفئات، فإنها تلتقي في قاسم مشترك بينهما وهو الضروري والحاجي قبل الكمالي من متطلبات الحياة اليومية من غذاء وملابس ومسكن وسائر الأحوال والعوائد. وقد صنف صاحب المقدمة البدو إلى ثلاثة أصناف حسب نمط العيش وامتلاك وسائل الإنتاج:

(١) البدو الرحل: البدو الذين يركز معاشهم على الإبل فهم لا يعرفون الاستقرار ويستغفرون في حياة الترحال وهم أشد الناس توحشاً وينزلون من أهل الحواضر

(١) المقدمة، ص ١٢٥.

(٢) المقدمة، ص ١٢١.

منزلة الوحش غير المقدور عليه والمفترس من الحيوان العجم، حيث يقول: (وأما من كان معاشهم في الإبل فهم أكثر ظعنًا وأبعد في القفر مجالاً)^(١).

إن مراعي التلال ونباتاتها وأشجارها لا يستغني بها الإبل في قوام حياتها عن مراعي الشجر بالقفر وورود مياهه الملحة والتقلب في فصل الشتاء فراراً من أذى البرد^(٢) وهم بالتالي أشد البدو توحشاً وينزلون من أهل الحواضر منزلة الوحش غير المقدور عليه ومن المفترس من الحيوان وهؤلاء هم العرب وفي معنائهم من ظعون البربر وزناته بالمغرب والأكراد والتركمان والترك بالمشرق^(٣) إلا أن العرب أبعد نجعة وأشد بدواة لأنهم مختصون بالقيام على الإبل فقط^(٤).

(٢) البدو شبه المستقرين: وهؤلاء يعتمدون في معاشهم على الرعي والفلاحة ولا يبتعدون كثيراً عن القرى والأرياف، ويعتمدون في معاشهم على تربية السائحة من غنم وبقر، وينتقلون أيضاً في الأرض بحثاً عن الكأ والمرعى إلا أنهم لا يبتعدون في رحلتهم ولا يخرجون عن المسارح الطبيعية وهم ظعنًا في الأغلب فالتقلب في الأرض أصلح لهم ويسمون شاوية ومعناه القائمون على الشاه والبقر، وهؤلاء مثل البربر والترك وإخوانهم من التركمان والصقالبة^(٥).

(٣) البدو المستقرين: وهم البدو المستقرين في القرى والأرياف ويعتمدون في معاشهم على الفلاحة حيث يقول صاحب المقدمة (فمن كان معاشه في الزراعة والقيام بالفلاح كان المقام به أولى من الظعن وهؤلاء سكان المدن والقرى والجبال وهم عامة البربر والأعاجم)^(٦).

من وجهة نظر البعض، فإذا كانت منهجية ابن خلدون سليمة في حد ذاتها فإنه من المجازفة أن يجزم أن استخدامها من طرفه كان دائماً وفي كل الأحوال سليماً وشأنه

(١) زبيير محمد، الحكم والاقتصاد عند ابن خلدون، عن ندوة ابن خلدون والفكر العربي المعاصر، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس ١٤ - ١٨ إبريل ١٩٨٠، ص ١٩٧.

(٢) المقدمة، ص ١٢١.

(٣) المقدمة، ص ١٢١.

(٤) المقدمة، ص ١٢١.

(٥) المقدمة، ص ١٢١.

(٦) المقدمة، ص ١٢١.

في ذلك شأن كل المؤرخين في كل زمان ومكان إذ الموضوعية المطلقة والتجرد التام إنما هي غاية دونهما عقاب كثيرة باطنية وخارجية لا تفلح دائماً مهما اجتهدنا في تجاوزها ومهما كانت المنهجية التي اهتدى إليها سليمة في المستوى النظري، فهو لم يستطع في مستوى التطبيق أن يتخلص من العوائق التي تحول عادة دون الموضوعية المطلقة وذلك إما بصفة غير شعورية لميوله والتزاماته العقائدية وأما بصفة شعورية ومقصودة للالتزاماته السياسية ومنافعه المادية^(١).

الخاتمة:

اعتمد ابن خلدون في بحوثه على ملاحظة ظواهر الاجتماع في الشعوب التي أتيج له الاحتكاك بها والحياة بين أهلها للتأمل في مختلف شئونها للوقوف على طبائعها وعناصرها الذاتية وصفاتها العرضية وما تؤديه من وظائف في حياة الأفراد والجماعات بعضها ببعض. هذا هو قوام منهجه في بحثه وهو قوام المنهج الذي لا يزال إلى الوقت الحاضر عمدة الباحثين في علم الاجتماع. يمكن القول بأن بحوث ابن خلدون تتناول جميع نواحي الحياة الاجتماعية، سواء في ذلك نواحي التطور ونواحي الاستقرار وذلك باستخدام منهج التصنيف والملاحظة واستقراء الحوادث، يعالج كل بحث منها مجموعة معينة من ظواهر الاجتماع للكشف عن طبيعتها وما تخضع له من قوانين^(٢).

ولذلك نجد المقدمة موطناً لعلوم عديدة نذكر منها علم الاجتماع، علم الاقتصاد السياسي، فلسفة القانون، علم التاريخ، وقد ظل العلم الذي أنشأه يستوعب جميع ظواهر الاجتماع الإنساني وهو ما يقتضي تعدد الزوايا والرؤى المنهجية. حيث يمكن لكل باحث أو دارس أن يجد ضالته فيه باختلاف أسسهم العلمية ومرجعياتهم المعرفية. وعلى هذا الأساس نعتبره في هذه الورقة رائد المنهج التصنيفي الذي هو أسلوب أولي من أساليب الإحصاء التطبيقي. غير أن كثيراً من الأفكار والقوانين التي انتهى إليها ابن خلدون لا تكاد تصدق إلا على الأمم التي عايشها وقام بدراستها وهي شعوب العرب والبربر والشعوب التي تشبهها في التكوين وشئون الاجتماع والتي لازالت إلى يومنا هذه تعيش هذه الشائبة القائمة على البدو والحضر رغم اختلاف العصور وتطور الحياة.

(١) الطالبي محمد، ص ٥٣ - ٥٥.

(٢) وافي عبد الواحد، أعلام عبد الرحمن بن خلدون، الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٥، ص ١٨١ - ١٨٢.